مركز
الدراسات
المتوسطية
والدولية

Center
for Mediterranean
and International
Studies

بمناسبة عيد الفصح الأرثوذوكسي: العامل الديني في ميزان الصراع الروسي -الأوكراني

وحدة بحث مركز الدراسات المتوسطية والدولية

دعا بابا الفاتيكان وأمين عام الأمم المتحدة إلى هدنة بين الطرفين المتصارعين بمناسبة عيد الفصح يوم الأحد 24 أفريل، إلا أن بوتين رفض ذلك حسب آخر خطاب للرئيس الأوكراني زيلينسكي. تدخل الإعتبارات الدينيةفي حسابات الصراع والعنف في المنطقة، ومنذ بداية الحرب خضعت لرؤية كل طرف. إلا أنها تبدو غير قادرة على تعزيز فرص التهدئة وحل النزاع بعد أن تم تأجيج أسباب الصراع الديني الحالية والتاريخية. كما تتجاوز الدين المسيحي، فالدين الإسلامي جزء من خريطة الصراع اليوم. بينما تعمل روسيا على استغلال الدين إما كعنصر تفعيل للشعور القومي الإنفصالي، كما هو الحال في أقاليم الشرق الأوكراني أوكعامل تأثير في دول المنطقة كقوة ناعمة مُعززة للتيار الداعم لها، في المقابل، تحاول القوى المناوئة دمجه في الهوية الوطنية للدول المستقلة عن الإتحاد السوفياتي سابقا، ضمن نشر النموذج الغربي للدولة. الأمر الذي أدى إلى عودة شبح التطرف الديني والعنصرية والحركات الجهادية.

عول بوتين على العامل الديني كجزء من القوة الناعمة الروسية، في إطار سياسة خارجية متكاملة مبنية على خصوصية الثقافة الروسية. وأدوات هذه السياسة كما حددها بوتين منذ وصوله إلى السلطة، تقوم على الوسائل الإعلامية والمواقع إلكترونية وبرامج التعاون الثقافي والتعليمي إلى جانب دعم المجتمع المدني المحلي وفي الدول المستهدفة. لا يختلف ذلك عن سياسات الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية. فقد شهدت المنطقة تدفقا كبيرا للأموال والمنظمات والجمعيات والباحثين والأكاديميين، منذ 1990. كلاهما أيضا لم يمتنعا في نفس الوقت عن دعم الجماعات المسلحة والتنظيمات المتطرفة وتمويلها وتوظيفها في خريطة الصراعات المتحولة.

استفادت روسيا طويلا من تبعية الكنائس الأوروثوذوكسية في دول المنطقة،خاصة في أوكرانيا. عززت الكنيسة الأوكرانية الطابع المحافظ للهوية الدينية، في تماه تام مع الرؤية الروسية. عارضت الكنيسة المنظمات الحقوقية الدولية خاصة المدافعة عن الحق في الإجهاض وحقوق الأقلية المثلية. كان نمط العيش المحافظ ومركزية الكنيسة وممثليها في المجتمع ومرجعيتها وماتوفره من شرعية للمؤسسات السياسية وسيطا مناسب لتوسيع التأثير الروسي. إلا أن التيار المناوئ، المدعوم من الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية روج للخطاب التحرري وحدَ من تأثير الكنيسة بالتوازي مع إدماجها في عملية بناء الهوية الوطنية الأوكرانية. من أبرز مؤشرات ذلك كان دعم إنفصال الكنيسة الأوكرانية عن الكنيسة الروسية في إطار ما أصطُلح عليه بالسيادة الروحية للبلاد سنة 2018. يبدو أن العملية العسكرية قد خلقت أثرا عكسيا خلافا لما توقعه بوتين. لم يكن التاريخ الديني المشترك بين الدولتين مساعدا للتدخل ولا مسهلا له خاصة على المستوى الشعبي، بل عززت العملية الشعور القومي الأوكراني وتصاعد الخطاب الديني المناوئ لها في المؤسسة الدينية وفي الأوساط الشعبية. يتواجد اليوم 7000 قس أورثوذوكسي في صفوف قوات الدفاع الإقليمي (TDF) إلى جانب الجيش الأوكراني.

تعرف الكنيسة الأورثوذكسية على امتداد المنطقة إنقساما كبيرا حول الإصطفاف مع أو ضد روسيا. كما هو الحال في جورجيا وليتوانيا وألبانيا وصربيا. فيما يحاول العديد من ممثلي الكنائس الأخرى تجنب الخوض في الصراع سواء بالصمت أو عدم دعم أي طرف. إلا أن هذا الإنقسام يتواجد أيضا في الأوساط الإسلامية. لعل أبرز ملامحه ما ظهر مع انخراط القوات الشيشانية في الصراع بزعامة رمضان قديروف حليف بوتين. لكن الملفت للإنتباه هو تواجد كتائب تضم مسلمين شيشانيين في الجانب الأوكراني. من أهم الكتائب المعروفة على الساحة اليوم كتيبة جوهر دودابيف- Dzhokhar Dudayev بقيادة آدم أوسماييف وكتيبة ''الشيخ منصور'' بقيادة مسلم شيبيرلوفسكي Muslim Cheberloevsky ، التي ترددت معلومات حولها، في الإعلام الروسي والغربي، عن صلتها بتنظيم الدولة الإسلامية. هذهالفصائل شيشانية مناوئة لرمضان قديروف الذي أعلن عن دعمه للتدخل العسكري الروسي وإرسال قواته إلى أوكرانيا منذ بداية الحرب. بالإضافة إلى هذه القوات، تتواجد قوات تتارية من المسلمين تعود أصولهم إلىشبه جزيرة القرم. سبق لممثل الأقلية المسلمة المعترف به رسميا Ayder Rustemovبنشر فيديو مطالبا المسلمين بدعم الجهاد ضد الروس. ينتمي آيدر رستموف إلى الطائفة الصوفية، وهي الطائفة التي تجد صدى كبيرا لها في الشيشان. الأمر الذي يعني أن امتدادات الإنقسام تنتشر في الأوساط المسلمة أيضا، خاصة أن جزء من قيادات الجماعات المسلحة الشيشانية، والتي شاركت في حروب استقلال البلاد لا توافق على توجهات رمضان قديروف وأبيه من قبله الذي أغتيل سنة 2004.

بالإضافة إلى رسمتوف، نادى Said Ismagilov، من القيادات الإسلامية التتارية، إلى دعم القوات الأوكرانية.
لم يغب رجال الدين اليهود أيضا عن الصورة، حيث نزل العديد منهم إلى جانب القساوسة ورجال الدين المسلمين إلى ساحة الصراع، وقد تداولت وسائل التواصل الاجتماعي صورا مماثلة. يبدو العامل الديني مهما ومؤثرا في شرق أوروبا. بل عاد للعب دور في الخطاب الإعلامي في أوروبا الغربية. عادت أوروبا المسيحية البيضاء لتكون منصة الدعم لأوكرانيا ضد القيصر الروسي.
يعيد التاريخ نفسه في الفضاء الأوروبي حيث يعود الدين كعامل في هندسة الفضاء السياسي. كما يختلط بالوازع الوطني واللغوي والعرقي، في لعبة توازنات استراتيجية معقدة في نظام دولي بصدد إعادة التشكل. يبدو أن أسطورة القيم والقواعد المشتركة للعلاقات الدولية قد فقدت بريقها، ولعل الديمقراطية وقيم حقوق الإنسان قد أضحت على هامش لعبة الأمم من أجل المصالح والقوة. يبدو السيناريو مفتوحا على كل الإحتمالات، وفي جميعها لا تجد القيم المشتركة والتعاون والسلام موطأ لها أمام الواقعية الباردة للقوى الدولية.